القصص

مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

العــــــروس . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يَرُقْها اليوم أن تجلس إلى المرآة جِلْسَتَها الطويلة ، فدلفت إلى النافذة تنوء بِهَمٍّ ثقيل على صدرها ، واتكأت بمرفقها على حافة المقعد ، ثم أزاحت السجف وجلست ترقب الطريق . وصكّ أذنيها غناء الفتيات فى بيت جارتها كريهاً نابياً كأنما ينعى إليها الشباب . . . !

لقد جاوزت (إحسان) العشرين وما تزال قعيدة الدار ، تنتظر الخاطب المجهول يدقّ الباب ليطلب يدها . أتراها لم تكن أجمل من فلانة وفلانة وفلانة ؟ بلى ، وإنها لخير منهن ؛ ولكنهن تزوجن جميعاً وانتهى بهن القدر إلى المستقبل الذى تحلم به كل فتاة ، وهى وحدها ما تزال تنتظر . . . !

***

وأخذ الزمن يتراجع ، كما تُطوَى سِيبِيَّةُ الخيالة (١) فإذا هى ما تزال بنت السادسة عشرة ؛ تزدهيها فتنةُ الجمال ، وتسيطر على نفسها كبرياءُ الغنى ، وتعبث بها أهواء الأنوثة الباكرة ؛ وإذا هى بين أترابها فى المدرسة — كما كانت — معقدُ المنى ، ونجوى الخواطر ، وملتقى نظرات الغبطة ، لم يجتمع لواحدة من رفيقاتها يومئذ ما اجتمع لها مما تفخر به الفتاة ؛ فلم تكن لتشاركهن الحديث إلا على كبرياء وأنفة ؛ وحين يجرى حديث الشبان بينهن فى همسٍ موسيقىّ مُطرب ، كانت تمط شفتيها فى سخرية عابثة ، ثقةً بأنها الفتاة المرموقة الشمّاء ، كأن على مَن دونها من الفتيات أن ينتظرن ريثما تختار هى فتاها المجدود ، ثم تترك لهنّ من بعدُ حقّ الأمل فى الزوج الذى يشتهين . . . !

وكان لها من نشأتها وجاه أبيها ما يُفسح لها فى الأمل ، وعدّ لها أسباب المنى العريضة . ولكن أباها قد مات ! أفينقص من شرفها وجمالها وثرائها أن أباها قد مات . . فأين الخطّاب يزدلفون إليها ويزدحمون ببابها فى طلب الرضى والقبول ؟

إنها لرهينة الدار منذ سنوات خمس ؛ فلا تبصر الطريق — على رغم عصريّتها — إلا من خصاص النافذة ، ولا تفارق محبسها إلا فى ظل أمها الأيّم العجوز ؛ فلم تكن تعرف من الشبان غير ابن عمها (فريد) . لقد كان فيما ترى مثال الشاب الذى يداعب خيالها . لم يكن قد أتم دراسته العالية بعد ، ولكنه أتم الرجولة ؛ وكان على فقر من المال ، ولكنه على غنى فى النفس ، وكمالٍ من الأدب والفضيلة . كم كانت تُعجب برجولته ونبله ! ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أن تمنحه أكثر من الاعجاب . آه لو كان على سعة من المال . . . لتمنّتْ أن يكون زوجها الذى تقاسمه الحياة . . . من أين له أن يهيّىء لها أسباب الرفاهية التى تشتهى . . . ؟

لم تكن تدرى أنها تحبه إلا يومَ جاءها البشير أنه خطب لنفسه فلانة ، فأغلقت من دونها الباب وجلست وحدها تبكى ما ساعفتها الدموع . ولم يكن يدرى أنه يحبها إلا يومَ زارها من بعدُ ، فاذا فى عينيها تساؤلٌ وجواب ، وعلى شفتيها ابتسامة ذابلة ، ثم إذا هى تفرّ فتضرب الحجاب بينها وبينه ، خشية أن يرى على وجنتيها علامة التأثر ترسمها الدموع . . . !

ولكم تمناها لنفسه وبات يرعى خيالها ليالىَ طويلة ، ولكنه كان يزجر نفسه أن تؤمل الزواج من إحسان ؛ وأين فقره وإملاقه من غنى إحسان . . . !

***

(١) سيبية الخيالة : شريط السينما .

ومسحت الدموع عن وجنتيها ، وقالت تعزى نفسها :

« لقد تزوج فريد ، فما أسفى على زواجه ؟ إنني لجميلة ، وإنني لغنيّة ، وإن الشبان ليسرعون الى ذوات الجمال والمال »

وطافت برأسها أحلام ، وزينت لها الأمانيُّ دنيا بهيجة من الخيال أنعمتها أنسا وسعادة ؛ واستنامت الى المنى ، تصبح وتمسى حالة بالخاطب المجهول

وتصرّمت الأعوام عاماً بعد عام ، وإحسان تعيش من أحلامها فى رضى وقناعة ؛ وحسبها من مسرات الشباب أنها توقظ كل يوم واحداً من شباب أحلامها تساقيه المنى وتبادله الحب ، فاذا انتبهت من أحلامها السعيدة قالى حين ، كأنما هى من حبيبها على ميعاد

وأخذت زهرات الربيع تنثر أوراقها داميةً على الشوك ، لأن البستانى يحول أن تمتدّ اليها اليد التى تشعرها أنها جميلة ؛ ولكن بقيت على ثغر الزهر ابتسامته الناعمة ، لأنه من أحلامه على رضى وقناعة

لشد ما كان يعجب شباب الناحية باحسان ! فما يحلو لهم سمر إلا الحديث عن جمالها وفتنتها ، وما يطيب لهم مجلس إلا بذكر كمالها وشمائلها ؛ ولكنها على ما حلّت من نفوسهم أكرمَ منزلة — لم تبلغ أن تكون موضعَ الأمل عند واحد منهم أن تصير زوجته . لقد تقاصرت دونها المنى ؛ من إبائها ، ورغناها ، وحرصِ أهلها على التقاليد

ومن أين لغير القليل من الشبان أن يُرضِىَ مطامع إحسان ؛ من أين له (المعجزة المالية) ليؤدى لها المهر الذى ترضاه ، وينفقَ فى أكلاف العرس ما يُرضى التقاليد ؟

وطالت الأيام على العذراء الحالمة ، وبدأت تملّ وحدتها الفارغة ، وأخذت تسىء الظن بجمالها وفتنتها . ولم تجد غير المرآة تبثها خواطرها ، فتعودت الجلوس إليها الساعاتِ كل يوم ، تبادلها الرأى فيما تظهر به جميلة جذابة ؛ لعلها أن تجد بالجمال المصنوع رجلها الذى تحلم به . . .

أفتستطيع المرآة أن تمنحها الزوج إن منحتها الجمال ؟ . . !

واستيقظت من أحلامها حين توالت عليها الأنباء بأن صواحبها اللاتى كانت تسخر منهن وتُزهى عليهن بمالها وجمالها — قد تزوجن واحدة بعد أخرى ، واستقرت بهنّ الحياة فى بيت الأمومة

وهذه صديقة أخرى تتزوج . لقد طالما هزئت إحسان من (خديجة) جارتها وزميلتها فى المدرسة ؛ وما أكثر ما كانت تركبها بالدعابة الثقيلة والنكات اللاذعة حتى تطفر من عينيها دموع الذلة والانكسار ! لم تكن خديجة فى مثل جمال إحسان ، ولا لها قليل من جاه أبيها أو ماله ؛ ولكن ، هاهى ذى تتزوج وتعزف لها الموسيقى ، وإحسان ما تزال تنتظر . . . !

* * *

وانقطعت سبيبةُ الذكرى ، فأفاقت إحسان من غفلتها ، وراحت تمسح الدموع عن وجنتيها بأطراف السجف وتنظر الطريق

وأخذ عينيها بريقُ الكُرات الملوّنة مدلاّة من حبالها ، يتلاعب بها الهواء تلاعبَ اليأس والهم بنفسها ؛ واضطربت فى مرأى عينيها الرايات الخضر . اضطرابَ أوراق الشجر هبّت عليها رياح الخريف . . . !

لقد كانت وحدها فى البيت ، فلم ترافق أمها إلى بيت خديجة لتزف إليها التهنئة . منذ أمس ، حين زارتها صديقتها داعية ، وهى لا تستقر على حال من لذع الغيرة وألم الحرمان ! وقدرت — إن هى أجابت الدعوة — أنها ستكون بين المدعوّات موضع السخرية والاشفاق ؛ وما تحب أن يسخر منها أو يشفق عليها أحد . . . !

ومرّ من تحت النافذة فوج من الشباب يقصدون بيت العروس ، وراحت إحسان تختبر فراستها ، لعلها أن تعرف زوج صديقتها من بين هؤلاء . أفكانت تريد ذلك حقاً ؛ أم هى تريد أن تعرف من بينهم رجل أحلامها الذى صحبته فى الوهم سنوات . . ؟

وزفرت زفرة خافتة ، وراحت تحصى سنيها التى عمّرتها على الأرض . ياويلتا ! اثنتان وعشرون سنة . . . ! لقد تزوجت أمها فى الثالثة عشرة ، فلعل إحسان لو تزوجت فى مثل سن أمها — كانت موشكة أن تصير جدة . . . ! وركبها اليأس ، واصطلحت عليها الأفكار السود ، ولم تجد لنفسها طاقة بالوحدة بعد ؛ فازّينت وأسرعت إلى بيت العروس تتفرّج . . .

وهاجت أحزانها مظاهر الفرح ، وبهرتها الأنوار البراقة ، ولدغتها ثعابين الغيرة من عناقيد الزهر متعانقة متشابكة ، ورنّت فى أذنيها ضحكات النساء كأن قلباً من الزجاج ينكسر . وانتظم النساء حلقات — على عادتهن — يتهامسن عابثات ضاحكات ؛ فوقع فى نفسها أنهن يتهامسن فى شأنها ، فانطوت على نفسها فى زاوية من البهو تحاول ألا تتحدث إلى أحد ، أو يتحدث إليها

أحد . وخُيِّل إليها أن التمنيات التي توجهها إليها صواحبها — سخريةٌ وشماتة . . .

« العُقْبى لكِ . » ما أحراهن أن يترجمنها إلى اللغة الصريحة فيقُلْن : « الرحمة والرثاء لك أيتها الآنس المسكينة . . . ! »

وأديرت — على رد الخريف — أكوابُ الشراب المثلوج ، ووُزِّعت الحلوى في العلب المذهبة الثمينة ، وتزاحم النساء يتخاطفنها كأنما يقتضين الأجر على ما شرَّفن العروس بالحضور للتهنئة . . . ! ورأت إحسان أنها لم تتفرج مما بها ولكنها زادت همّاً على هم ، فأسرعت عائدة إلى الدار

ولم تنم المسكينةُ ليلتها ، ولكن أخذتها إغفاءات متقطعة تتخللها الرُّؤى والأحلام . وعاد تفكيرها في الزواج بعضَ عملها اليوميّ ، ولكنها لم تعد تفكر في الرجل — إذ تفكر في الزواج — أكثر مما تفكر في مظاهر الاحتفال ، وزينة العرس ؛ وفيمن تدعو ليشاركها الفرح من نساء المدينة وشبان المدينة ؛ كانت تفكر في الانتقام لكبريائها التي زعمتها ديست يوم عرس خديجة . سيكون احتفالاً خيراً من احتفالها ، وسيزيّن البيت أروع مما ازّيّن بيتها ، وسيجتمع لها من سراة المدينة ووجهائها من لم يجتمع لعروس قبلها . ستحاول يومئذ أن تسعر الغيرة والحسد في قلوب كل صواحبها ، أكثر مما كانت تسعرها بكبريائها وتيهها عليهن وهي ما تزال صغيرة تطلب العلم معهن بالمدرسة ، أو تشاركهن اللعب في فناء الدار . . . !

* * *

كان العام قد استدار ، وأخذت زهرات الربيع تتفتح ويضوع أريجها في الجو ، ولكن قطرات من الندى كانت تبللها كدمعة الحزن في وجه عذراء مستحيية . . . ولكنها تبتسم ؛ أكانت تصطنع الابتسام لتخفي عن الناظر بعض ما في صدرها من هم ، أم كانت هذه دموع الفرح على وجنتيها . . . ؟

وأطلّ الفتيات من النوافذ يتفرّفن خطيبَ إحسان خارجاً من دارها في جماعة من أهله ؛ ورأين بضعة من الرجال عليهم سيماء السراة من أهل الريف ، في جلابيبهم الفضفاضة ومعاطفهم السود ، يلوون ألسنتهم بالحديث في لهجة جديدة على أهل الحضر . وبينهم (أفندي) واحد يبدو من مظهره ، ونظام لباسه أنه وإن عاش في المدينة طويلا — ما يزال بعضَ أهله

وقالت فتاة لأختها :

— « أهو هذا ؟ »

— « بل هو ذاك »

ولم يكن هذا ولا ذاك ؛ ولكنه خرج بعد انفضاض الجمع ، يتوكأ على نفسه من ثقل وبدانة حَشْوَ ثيابه الغالية ، يلوك بين شدقيه لساناً يتفقّد بقايا الطعام بين أضراسه ، ولم يُخْفِ ميلُ طربوشه أثر الوشم في صدغه

وقالت فتاة :

— « أتنه لهُو ؟ »

فأجابتها صاحبتها بابتسامة

وبرق الماس في أصبعه ، ورفّ الذهب من سلسلة ساعته ، فقالت الفتاة :

« إنه لغنيّ . . . ! »

* * *

وكان الحفل الحاشد بعد أيام ، فاجتمع فيه من مظاهر البذخ والغنى ما لم يتهيأ لسكان الحيّ أن يشهدوا مثله منذ أعوام ؛ فأقيمت المقاصف ، ووزعت الهدايا ، ودقت الطبول ، وعزفت الموسيقى ، وتجاوبت ألحان المغنين والمغنيات بين فناء البيت وأعلاه ، وتناثرت نجوم الكهرباء تنقل الى الأرض بعض معاني السماء ، وعبق أريجُ الزهر يحمل الى أهل الحياة أنفاس أهل الجنة . . . وإحسان في مجلسها راضية ناعمة ، تشرف من علٍ على الحفل وزينته نخوراً مزهوة

لقد كانت فرحةُ الزواج عندها أن تشهد لنفسها مثل هذا الحفل ، وقد شهدته على أكمل ما أبدعته في خيالها ؛ وبلغتْ مأملَها في الظهور على صواحبها بما يتقاصرن عنه من بذخ وإسراف . أما الزوج ، أما الرجل الذي سترتبط اليه وترتبط إليها فلا فكاكَ مدى الحياة ، أما رجلُ أحلامها الذي أحبته زماناً من طول ما صحبها في الخيال — أما ذاك ، فما عليها أن تظل ناعمة تحلم ما دامت قد انتقمت لكبريائها الجريح

لم تفتش المسكينة عن الرجل الذي سعدتْ في الوهم بصحبته ، وذاقت معه على البعد نعيم الحياة ، وتنوّرت من فكرها فيه عالَمَ الحب ودنيا الجمال . . . وراحت تفتش عما يُرضي الناس ويطلق ألسنتهم بالاعجاب . . .

وباعت سعادة العمر ؛ واشترت سعادة ليلة . . . !

محمد سعيد العريان